كذلك المنطلق هنا. وقد تبيّن أنّ الآية الكريمة الثانية مبنيّةٌ على الآية الكريمة الأولى مع إضافة الجديد من المعاني والمزيد من الفوائد. لقد أمرت الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ بأن يحكم بين بني إسرائيل في المقام الأول بما أنزل الله تعالى ونهته عن اتّباع أهوائهم منصرفاً ومعرضاً عمّا جاءه عليه الصّلاة والسّلام من الحقّ. وإنّ الآية الكريمة الثانية لتأمر النّبيّ ﷺ بأن يحكم بينهم بما أنزل الله تعالى وتنهاه عن اتّباع أهوائهم وتضيف إلى ذلك تحذيره عليه الصّلاة والسّلام من أن يفتنوه ويصرفوه عليه الصّلاة والسّلام عن بعض ما أنزل الله تعالى إليه. إنّ الآية الكريمة الأولى قد بيّنت أنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل لكلّ أمّةً شريعةً وطريقاً تؤمّه في تعاليم دينها، ومنهاجاً وسبيلاً واضحاً تسلكه في توحيدها ربّها جلّ وعلا وإفراده جلّ وعلا بالعبادة، ولهذا تتابعت الأنبياء والكتب حتى بعث الله تعالى محمّد بن عبد الله ﷺ بدين الإسلام الّذي لا يقبل جلّ وعلا من أيّ عبدٍ ديناً سواه، فعلى الجميع استباق الخيرات استعداداً للقاء الله تعالى الّذي ينبّىء الخلائق فيما كانوا فيه يختلفون. وإنّ الآية الكريمة الثانية تتجاوز ذلك إلى الجديد من المعاني والمزيد من الفوائد. إنّها تقرّر أنّ من أعرض عن الرّسول الخاتم الكريم وعن القرآن العظيم، فإنّ الله سبحانه وتعالى سيزيده إلى عمًى بصيرته عمى وإلى انصراف قلبه انصرافاً وليعلم خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يريد أن يصيب أولئك المعرضين عن ذكره جلّ وعلا ببعض ذنوبهم لأنّهم ينتمون إلى ذلك الكثير من النّاس الفاسق الظالم الكافر. ولمّا كان الحديث يدور عن نوعين من الحكم، حكم الجاهلية الّذي ما أنزل الله تعالى به من سلطان وحكم الله تعالى، فإنّ الآية الكريمة الثالثة والأخيرة في القسم تنكر في صدرها على

أولئك الباغين أن يبغوا حكم الجاهليّة ويرفضوا حكم الله تعالى، وتقرّر في عجزها أنّه لا أحد أحسن من الله تعالى حكماً لقومٍ وصلوا إلى درجة اليقين في إيمانهم بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ نبيّاً، وبالقرآن الكريم دستوراً.

• • •

الآية رقم (٤٨)

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

تبيِّن الآية الكريمة مصدر القرآن الكريم وهو السّماء، وما اشتمل عليه وقصد إليه من حقّ وذلك في القول: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ﴾، وممّا جاء في هذه المعاني قول الحقّ جلّ وعلا[1]: ﴿وإنَّه لتنزيل ربّ العالمين. نزل به الرّوح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسانٍ عربيٍّ مبين﴾، وقول الحقّ جلّ وعلا[2]: ﴿وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل. وما أرسلناك إلاّ مبشّراً ونذيرا﴾، إنَّ ربّ العزَّة أنزل هذا الكتاب العزيز إلى المصطفى ﷺ بالحقّ وبالصّدق الّذي لا ريب فيه أنّه من عند الله[3]، وهذا الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصدّقٌ لما بين يديه من الكتب السّماوية السّابقة لأنه يشير إليها، وينوّه بشأنها، ويعيّن

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٥.
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥).

مصدرها، ويؤكد أنّها موحىً بها من الله تعالى بواسطة رسولٍ من الملائكة كريم هو جبريل عليه السَّلام، إلى كوكبةٍ من رسل الله تعالى الكرام، ولأنَّ هذه الكتب السّماوية السّابقة مصدّقةٌ لهذا الكتاب العزيز، لأنّها أشارت إليه ونوّهت بشأنه وبشّرت به وبخاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ. وهذا الكتاب العزيز مهيمنٌ على الكتب السّماويّة السّابقة شاهدٌ بصحّتها، حافظٌ لها، أمينٌ عليها، فما وافقه منها فهو حقّ، وما خالفه منها فهو باطل[1].

وهكذا يتبيَّن أن القرآن الكريم هو المقياس الّذي يحتكم إليه لمعرفة ما في الكتب السّماوية الأخرى من حقّ أو باطل، من صدقٍ أو كذب. إنَّ ما وافق في تلك الكتب السّماوية القرآن الكريم فهو حقٌّ وصدق، وإنَّ ما خالفه باطلٌ وكذب. والحقيقة أنَّ هذا المقياس يبيّن الكثير من وجوه التَّحريف التي تعرّض لها كلٌّ من التّوراة والإنجيل.

ولمّا كان دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ وأوحى إليه القرآن الكريم معجزة هذا الدّين الكبرى الخالدة ناسخاً لكلٍّ من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، وهما دينان سماويّان، ومن باب الأولى أن يكون ناسخاً للأديان غير السَّماوية، ولمّا كان محور حديث هذا القسم وكذلك القسم السّابق وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى، فإنَّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يحكم بين أهل الكتاب، ومن باب الأولى سواهم، بما أنزل الله تعالى إليه من قرآنٍ كريمٍ، وأوحى إليه من سنَّةٍ نبويّةٍ مطهّرة. وبهذا يكون القول: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾، ناسخاً لما جاء خطاباً

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥).

للمصطفى ﷺ في الآية الكريمة الثانية والأربعين من هذه السّورة الكريمة: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾، وسبق أن عرفنا أنَّ هذا الحكم منسوخٌ بالآية الكريمة التالية أيضاً، وذلك في القول : ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾.

ولمّا كان القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى بالحقّ، وبالحقّ نزل القرآن الكريم، وكان المصطفى ﷺ إنّما يحكم بالحقّ الّذي أراه الله تعالى إيّاه قرآناً كريماً أو سنّةً مطهّرة، ولمّا كان الّذي لا يحكم بما أنزل الله تعالى من الحقّ إنّما يتّبع الهوى كبني إسرائيل الّذين رفضوا حكم الله تعالى في الزاني المحصن وأصرّوا على الحكم بأهوائهم فقد نهت الآية الكريمة في جزئيّتها التالية المصطفى ﷺ عن أن يتّبع أهواء بني إسرائيل، عادلاً عمّا جاءه عليه الصّلاة والسّلام من الحقّ، معرضاً عمّا وصل إليه فعلاً من الصّدق الموحى إليه من ربّ العالمين في القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة. قال تعالى: ﴿ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ﴾.

ولو أنّا تمثّلنا قضيّةً مّا يَقْضي فيها حاكم لتبيّنّا أنَّ ثمة حقّاً ينبغي أن يتوخّاه كلٌّ من الحاكم والمحكوم له أو عليه، وأنَّ ثمة باطلاً ينبغي أن يتحاشاه كلٌّ من الحاكم والمحكوم. فإذا كان الحقّ واضحاً لا لبس فيه على غرار ثبوت الزنى على اليهوديّين المحصنين وكان الحاكم أعدل الخلق وهو محمّد بن عبد الله ﷺ فمن أين يصحّ إذن للباطل أن يجيء؟ يصحّ أن يجيء من جهة الخصم حينما يتّبع الهوى وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين النّاس بالحقّ ولا تتّبع الهوى فيضلّك

(١) سورة ص: الآية ٢٦.

عن سبيل الله. إنَّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب﴾.

ومن البيّن أنَّ هذا القول خطاباً للمصطفى ﷺ: ﴿ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ﴾، يجعل الحقّ من نصيب المصطفى ﷺ على حين يجعل الهوى من نصيب بني إسرائيل. إنَّ الجزئيّة الكريمة تنهي المصطفى ﷺ النّبيّ المعصوم عن اتّباع هوى بني إسرائيل الضّالين عن سبيل الله تعالى. ونستطيع أن نفهم بأنَّ هذا النّهي امتدادٌ لعصمة الله تعالى هذا النّبيّ الكريم من كلّ سوء.

ومع أنَّ الحكم في التّوراة وفي الإسلام في حقّ الزاني المحصن واحدٌ، ومع أنَّ هنالك أموراً جوهريّة غير قابلةٍ للنّسخ في سائر الدّيانات السّماوية ومن هذه الأمور ما أشارت إليه الآيات الكريمات من سورة الأنعام من الآية الكريمة الحادية والخمسين بعد المائة إلى الثّالثة والخمسين بعد المائة، وما أشارت إليه آيات الحكمة من سورة الإسراء من الثالثة والعشرين إلى التاسعة والثلاثين، فقد شاء الله تعالى أن يجعل لكلّ أمة تتبع رسولاً من الله تعالى شرعةً ومنهاجاً. قال تعالى: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ وظلّ الأمر كذلك إلى أن بعث الله تعالى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ بدين الإسلام النّاسخ لكلّ دين ابتداءً باليهودية والنّصرانية، وأنزل عليه القرآن الكريم آخر الكتب السّماوية وأشرفها مصدّقاً لتلك الكتب ومهيمناً عليها لاشتماله على كلِّ خيرٍ تفرّق فيها هذا إلى ما خصَّ الله تعالى به هذا الكتاب العزيز من خصائص ومنها أنّه الكتاب السّماوي الوحيد الّذي يجمع بين كونه منهجاً ومعجزةً إلى يوم الدّين.

ويلاحظ أن السّياق في الجزئيّة الكريمة: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً﴾، يجيء في صيغة الخطاب مما يصحّ أن يفهم معه أنّه يعني الأمم الموجودة فعلاً من أتباع الّديانات السّماوية الثلاث، الإسلام واليهودية والنّصرانية. ومعنى الجزئية الكريمة: لكلّ منكم جعلنا شرعةً ومنهاجاً. ومَن ألطف ما يمكن الإشارة إليه والتّنويه به هو أنّنا بشأن لفظتي شرعة ومنهاج أمام ما يسمّى بتطوّر الدّلالة وبانتقالها من المدلول الحسّيّ إلى المدلول المعنويّ. إنّ لفظ شِرْعة وكذلك شريعة تدلّ أساساً على الطّريق الموصل إلى الماء[١]، ثمّ أصبح كلٌّ من اللّفظين يدلّ على الماء ذاته. ويشترط في هذا الماء أن يكون ماءً عِدّاً غزيراً غير منقطع يسهل تناوله ومن يرده بإناءٍ يغترف منه ويسهل على الأنعام الارتواء منه[٢]، وفي المثل: أهون السّقي التشريع، وذلك لأنّ مورد الإبل إذا ورد بها الشّريعة لم يتعب في إسقاء الماء لها كما يتعب إذا كان الماء بعيداً، لأنّ من شروط الشّرعة والشّريعة أن يكون الماء ظاهراً مَعيناً لا يُسْقَى بالرِّشاء[٣]، ثمّ أصبح كلٌّ من اللّفظين يدلّ على ما سنّ الله من الدّين وأمر به كالصّوم والصّلاة والحجّ والزّكاة وسائر أعمال البرّ[٤]، قال بعضهم: سمّيت الشريعة شريعةً تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إنّ من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة رَوِي وتطهّر. قال: وأعني بالرِّيِّ ما قال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أَرْوَى فلمّا عرفت الله تعالى رَوِيت بلا شرب. وبالتّطهّر ما قال تعالى: ﴿إنّما

---

(١) انظر اللسان: «شرع» وتفسير الطبري (٦/ ١٧٤)؛ وتفسير القرطبي (٢٢٠٨).

(٢) انظر اللسان: «شرع».

(٣) انظر اللسان: «شرع».

(٤) انظر اللسان: «شرع»؛ ومعجم مقاييس اللّغة «شرع» (٣/ ٢٦٢).

يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً[1]﴾، ويقال: شرع الوارد يشرع شَرْعاً وشُروعاً: تناول الماء بفيه. وشَرَعت الدوابّ في الماء تشرع شَرْعاً وشروعاً أي دخلت. ودوابٌّ شُروع وشُرَّع: شرعت نحو الماء[2]، وشَرَعْتُ في هذا الأمر شروعاً أي خضت[3]، وشَرَعَ فلانٌ في كذا وكذا إذا أخذ فيه[4]، وشَرَعَ الباب والدّار شُروعاً أفضى إلى الطّريق[5]، وقال محمّد بن يزيد: شِرْعة معناها ابتداء الطريق، والمِنْهاج الطريق المستقيم[6]، ويقال: أشرعت طريقاً إذا أنفذتَه وفتحتَه، وشرعت أيضاً[7].

وهكذا يتبيّن أنَّ من متعلّقات الشِّرعة والشَّريعة في كلٍّ من المحسوسات والمعنويّات أنّها تدلّ على أوّل الطريق وعلى الطريق المؤدّي إلى الخير وعلى الماء الغزير العذب النّمير السّهل التناول. ومن البيِّن أنَّ الارتواء يكون في المحسوسات من نصيب الجسد بواسطة الماء غذاء الأجساد، ويكون في المعنويّات من نصيب الرّوح بواسطة الوحي غذاء الأرواح.

فإذا تحوّلنا إلى لفظة منهاج تبيّنا أنّها في المحسوسات تدلّ على

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «شرع» (٢٥٨).

(٢) اللسان: «شرع».

(٣) اللسان: «شرع».

(٤) اللسان: «شرع»؛ وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٦٦).

(٥) اللسان: «شرع».

(٦) اللسان: «شرع»؛ وفي تفسير القرطبيّ (٢٢٠٨): «والمنهاج الطريق المستمرّ».

(٧) معجم مقاييس اللغة: «شرع» (٣/ ٢٦٢).

الطّريق الواضح البيِّن المستقيم الّذي لا عوج فيه[1]، السّهل[2]، يقال: طريقٌ نَهْج: بيِّنٌ واضح. ومنهج الطريق: وضَحه. والمِنْهاج كالمنهج. وأنهج الطّريق: وضح واستبان وصار نَهْجاً واضحاً بيّناً. والمِنْهاج: الطريق الواضح. واستنهج الطريق: صار نَهْجاً[3].

وهكذا يتبيَّن أنَّ من متعلَّقات المنهاج في كلٍّ من المحسوسات والمعنويّات الوضوح والبيان والسّهولة والسَّعة والاستقامة.

في ضوء ما سبق نستطيع أن نفهم الشّرعة والمنهاج في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً﴾، أنَّ الحقّ جلّ وعلا جعل لكلّ أمَّةٍ من الأمم أرسل إليها رسولاً وخصّها بكتابٍ سماويّ طريقاً إلى الحقّ تقصده وتشرع فيه، وسبيلاً واضحاً بيّناً ومنهجاً سهلاً مستقيماً تسكله، في سبيل توحيد الله تعالى وإفراده جلّ وعلا بالعبادة تسلكه وتسير فيه. وهكذا يتبيّن أنَّ الشّرائع متعدّدة لتعدّد الطّرق الموصلة إلى الماء، وأنَّ المناهج متنوّعة كتنوّع السّبل الواسعة السّهلة في سبيل الوصول إلى الهدف المقصود. وإنَّ الغاية التي تفضي إليها تلك الشّرائع وتؤدّي إليها تلك السّبل هي إسلام الوجه لله رب العالمين وإفراده جلّ وعلا بالعبادة. إنَّ الشّرائع والمناهج بمثابة الطّرق المختلفة التي تلتقي عند غايةٍ معيّنة، وإنَّ لكلّ أمّة أرسل الله تعالى لها رسولاً شرعةً ومنهاجاً من أجل غايةٍ واحدة هي توحيد الله تعالى. ثبت في صحيح البخاريّ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: «نهج» (٥/ ٣٦١)؛ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ «نهج» (٥٠٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٦).

(٣) انظر اللسان: «نهج».

قال: نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلّات[1] ديننا واحد. يعني بذلك التّوحيد الّذي بعث الله به كلّ رسولٍ أرسله وضمّنه كلّ كتابٍ أنزله كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطّاغوت...﴾ الآية. وأما الشّرائع فمختلفةٌ في الأوامر والنّواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشّريعة حراماً ثم يحلّ في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشّدّة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة[2].

وإنّ ثمة سؤالاً عريضاً وخطيراً في نفس كلّ إنسانٍ منّ الله تعالى عليه بنعمة العقل وهو: ما هي الحكمة من تعدّد الدّيانات والأمم وما هي الحكمة من نسخ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ كلّ دينٍ سواه؟ وإنّ الآية الكريمة لتجيب عن هذا السّؤال وذلك في القول: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾، إنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لجعلنا أمّةً واحدةً لها رسولٌ واحدٌ وكتابٌ سماويٌّ واحد ولكنّ حكمة الله تعالى اقتضت أن يبعث الرّسل كلّما دعت الحاجة إلى بعث رسول وإرسال نبيّ. ومن أجل ذلك توالت الرّسل وتتابعت الكتب وتعدّدت الأمم وتنوّعت الشّرائع. وإنّما اقتضت حكمة الله تعالى ذلك من أجل أن يختبر الله تعالى عباده ويعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ من يتّبع الرّسول الّذي أرسله ممّن ينقلب على عقبيه كي يثاب المحسن يوم القيامة على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته. وظلّت

---

(١) الإخوة لعَلّات بفتح العين هم الإخوة من أبٍ واحدٍ وأمّهاتٍ شتّى.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٦٦)؛ وانظر الرسالة التّدمريّة لابن تيمية (٥٣).

الرّسل تترى والكتب السّماوية تنزل تباعاً حتى أرسل الله تعالى خاتم النبيين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ بدين الإسلام النّاسخ لكلّ دينٍ سواه والّذي لا يقبل الله تعالى ديناً غيره وأنزل آخر الكتب السّماوية وأشرفها القرآن الكريم المهيمن على الكتب السّماوية السّابقة. وإنّما كان محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيّين، والقرآن الكريم آخر الكتب السّماوية وأشرفها والمهيمن عليها المصدّق لها الشهيد على صحّتها المبيّن ما حلّ بها من تحريف، وإنّما كان الدّين عند الله تعالى الإسلام النّاسخ لكلّ دينٍ سواه فعلى كلّ النّاس أن يدخلوا في دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ، لأنَّ الإنسانيّة ذاتها، قد بلغت القمة في كمال الرّشد. إنّها إنَّما يلائمها هذا الرّسول الخاتم، والكتاب السّماويّ الأخير المتضمّن لكلّ خيرٍ مبثوثٍ في الكتب السّماوية السّابقة، المشتمل على ما خصّه الله تعالى به من صفاتٍ وميّزه به من نعوت، وإنَّما يوافقها هذا الدّين الّذي أكمله الله تعالى ورضيه لها وأتمّ به النّعمة عليها والّذي جعل معجزته الكبرى الخالدة تنفرد بين معجزات سائر النّبيّين بأنَّها معجزةٌ بيانيةٌ عقليّة من ناحيةٍ وبأنَّها مشتملةٌ على شِرعة هذا الدّين ومنهاجه. وبذلك تشبع هذه المعجزة كلّ نفسٍ، وتشنّف كلّ أذن[1]، وترضي كلّ عقل. وإنَّما كانت الدّيانات السّابقة مرحليّة وآنيّة لأنَّها كانت تساير الإنسانية مع مراحل نموّها وتطوّرها. أما وقد بلغت الإنسانية سنّ الرّشد فقد كان الملائم لها الرسالة الخالدة التّالدة التي بعث الله تعالى بها خير الأنام، محمّد بن عبد الله عليه أفضل الصّلاة وأزكى السّلام.

---

(١) يقال: شنّف الآذان بكلامه إذا أمتعها به.

وتأمر الجزئيّة الكريمة باستباق الخيرات وذلك في القول: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾، وهو قولٌ يشمل المسلمين وغير المسلمين. أمّا المسلمون فعليهم أن يسبق بعضهم بعضاً في فعل الخيرات، فعلى كلّ واحدٍ أن يجتهد مستعيناً بالله تعالى بأن يكون من السّابقين الفائزين المبرّزين. وأمّا غير المسلمين فعليهم أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين كي يكونوا من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس، وأن يستبقوا الخيرات، وأن يبزّوا غيرهم، وأن يركعوا ويسجدوا ويعبدوا ربّهم جلّ وعلا، وحده لا شريك له. ويأتي على رأس قائمة غير المسلمين الذين عليهم أن يتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين اليهود والنّصارى الذين يجدون في التّوراة والإنجيل نعت محمد بن عبد الله ﷺ مكتوباً فيهما عندهم. وإنَّ هؤلاء اليهود والنّصارى حينما يتحولون مسلمين لله رب العالمين لهم أجران اثنان بنصّ القرآن الكريم، أجر الإيمان برسول الله تعالى إليهم موسى أو عيسى عليهما صلوات الله تعالى وسلامه، وأجر الإيمان بمحمد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين. قال تعالى[1]: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾، إنَّ هؤلاء الذين هداهم الله تعالى إلى الإسلام من اليهود والنّصارى المؤمنين بالتّوراة والإنجيل أساساً إذا يتلى عليهم القرآن الكريم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين لله ربّ العالمين موحّدين. إنَّ أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما

(١) سورة القصص: الآيات ٥٢ ــ ٥٥.

صبروا على الإيمان بالكتابين السّماويين على التّوالي التّوراة والقرآن في حقّ اليهود، والإنجيل والقرآن في حقّ النّصارى، وبما صبروا على العمل بهما، وذلك بالصّبر على العمل بالتّوراة والإنجيل قبل الإسلام، وبالصّبر على العمل بالقرآن الكريم بعد الإسلام. وهم يدفعون السّيّئة بالحسنة وممّا رزقهم الله تعالى ينفقون في مجال الزّكاة والصّدقات وما إليهما. وإذا سمعوا اللّغو من أعداء الله تعالى أعرضوا عنه ومرّوا كراماً وقالوا للجاهلين: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم وأمنٌ وطمأنينةٌ تسلم بها أعراضنا من أذاكم.

ولمّا كانت الحياة الأولى حياة العمل ولا جزاء، وكانت الحياة الأخرى حياة الجزاء ولا عمل، كان في الجزئيّة الأخيرة الحديث عن تلك الحياة الآخرة منطلقاً من نقطة الاختلاف بين النّاس في هذه الحياة الأولى. قال تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾، ويلاحظ اشتمال الجزئيّة الكريمة على لفظ الجلالة: «الله» الذي يجيء في القرآن الكريم في مواطن العموم. وهو هنا مرشّح لمجيء لفظ: «جميعاً» والمعروف أنَّ النّبأ هو الخبر الجديد المفيد المهمّ. إنَّ النّاس جميعاً سوف ينبّئهم الله تعالى بما كانوا فيه يختلفون وسوف يقفون على الحقيقة التي غابت عن كثيرٍ منهم في هذه الحياة الأولى.

وإنَّ هذه الآية الكريمة تأخذ بسببٍ من قوله تعالى[1]: ﴿ولو شاء ربك لجعل النّاس أمّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك. ولذلك خلقهم. وتمت كلمة ربّك لأملأنَّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين﴾، كما تأخذ بسببٍ من قوله تعالى[2]: ﴿كان النّاس أمّةً واحدةً فبعث الله النّبيّين

(١) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه. وما اختلف فيه إلاَّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه. والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾، ومعنى القول: ﴿كان النّاس أمّة واحدة فبعث الله النّبيّين﴾، كان النّاس أمّةً واحدةً على دينٍ واحدٍ هو دين الإسلام لله ربّ العالمين فاختلفوا فبعث الله تعالى النّبيّين يتلو بعضهم بعضاً[1].

وإذا كان حديث هذه الآية الكريمة عن القرآن الكريم والحكم بما أنزل الله تعالى وتبيين الحكمة من تعدّد الديانات واختلاف الأمم وختم الديانات بدين الإسلام، فإنَّ الآية الكريمة التّالية مبنيَّةٌ على هذه الآية الكريمة ومتضمِّنةٌ للجديد من المعاني والمزيد من الفوائد، فإلى:

الآية رقم (٤٩)

قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

نستطيع أن نذهب إلى أنَّ القول في الآية الكريمة السّابقة: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ﴾، يقابله في هذه الآية الكريمة القول: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾، كما أنّا نستطيع أن نذهب إلى أنَّ القول في الآية الكريمة السّابقة: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً

(١) انظر الآية الكريمة التاسعة عشرة من سورة يونس.

ومِنْهاجاً. ولو شاء الله لجعلكم أمَّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾، يقابله في هذه الآية الكريمة القول: ﴿فإن تولّوا فاعلم أنَّمَا يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. وإنَّ كثيراً من النّاس لفاسقون﴾، ووراء هذا البناء المعنويّ بين الآيتين الكريمتين الجديد من المعاني والمزيد من الفوائد كما قلنا، وهذا ما نودّ أن نتبيّنه إن شاء الله تعالى.

من البيِّن أن القول في الآية الكريمة السّابقة: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾، وهو الذي يبيِّن مصدر القرآن الكريم وصفته في ذاته وفي حقّ الكتب السّماوية السّابقة ويأمر المصطفى ﷺ بأن يحكم بما أنزل الله تعالى عليه من قرآنٍ كريم يقابله في هذه الآية الكريمة القول: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾، الذي ينصّ على الحكم بما أنزل الله تعالى من قرآنٍ كريم ويكتفي بذلك لأنَّ الحكم هو المحور الذي تدور حوله آيات القسم. والمعروف أنَّ الأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى في الآية الكريمة السّابقة: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ ناسخٌ للتَّخيير في قوله[1]: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾[2]، والمعروف كذلك أنَّ الأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾، ناسخٌ هو الآخر لتخيير النَّبيّ ﷺ بأن يحكم بين بني إسرائيل أو أن يعرض عنهم[3].

ومن البيِّن كذلك أن القول في الآية الكريمة السّابقة: ﴿ولا تتّبع

(١) سورة المائدة: الآية ٤٢.
(٢) تفسير القرطبي (٢٢٠٧).
(٣) تفسير القرطبي (٢٢٠٩).

أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ﴾، وهو الذي ينهى النّبيّ ﷺ عن أن يتّبع أهواء بني إسرائيل في الحكم عادلاً ومنصرفاً ومعرضاً عمّا جاءه من الحقّ، وأوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم، وهو الذي يتحدّث عن اتّباع بني إسرائيل أهواءهم في الحكم بما أنزل الله تعالى وعن وجوب اتّباع المصطفى ﷺ ما جاءه من الحقّ من ربّه جلّ وعلا يقابله في هذه الآية الكريمة القول: ﴿ولا تتّبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾، وهذا القول يتفق مع القول السّابق في نهي النّبيّ ﷺ عن اتّباع أهواء بني إسرائيل أي في وجوب اتّباع المصطفى ﷺ الحقّ، وهذا الوجوب سكت السّياق هنا عنه اكتفاءً بذكره من قبل ومن ثمّ اكتفى بالقول: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾، ثمّ واصل السّياق الحديث في تحذير المصطفى ﷺ أن يفتنوه عليه الصّلاة والسّلام ويصرفوه عن طريق الحقّ ويصدّوه عن سواء السّبيل[1]، ويلاحظ أنّ التحذير من فتنتهم يجيء بصريح اللّفظ، وفي الوقت ذاته يقرّر كيد بني إسرائيل الضعيف حيث إنّ الذل والمسكنة الذين ضربهما الله تعالى عليهم يجعلان همّتهم العليلة وطاقتهم الكيلة محدودة الرّغبة في الفتنة عن بعض ما أنزل الله تعالى إليه عليه الصّلاة والسّلام من قرآنٍ كريم وعن شيءٍ قليلٍ في مجال الأحكام.

ولا شكّ أن هذه الرغبة المحدودة المقهورة خطيرة يجب وأدها في مهدها وإلاّ استشرى فسادها وعمّ خطرها، وقد قال عزّ من قائل[2]: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتى تتّبع ملّتهم﴾، وما معنى التّحوّل ـ لا سمح الله تعالى ـ إلى اليهوديّة أو إلى النصرانية؟ الارتداد عن دين

(١) انظر تفسير القرطبي (٢٢١٠).
(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

الإسلام والعياذ بالله. ومن البيِّن أنَّ آية سورة البقرة تشير إلى ما يُرْضي اليهود والنَّصارى ـ لا أرضاهم الله تعالى ـ بينما تشير آية سورة المائدة إلى اكتفاء بني إسرائيل بحرصهم على فتنة النَّبـي ﷺ عن بعض ما أوحى الله تعالى إليه خطوةً أولى بين يدي ما يخطّطون للقيام به من خطوات ومؤامرات ضد الإسلام ونبـيّ الإسلام وأمّة الإسلام.

وإذا كان بنو إسرائيل يريدون أن يفتنوا المصطفى ﷺ عن بعض ما أنزل الله تعالى إليه، فإنَّ القرآن الكريم في المقابل يدعوهم إلى اتّباع هذا الرسول النَّبـيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التَّوراة. وهذه الدَّعوة مفهومةٌ ضمناً من القول في الآية الكريمة بعد ذلك: ﴿فإن تولّوا فاعلم أنَّمَا يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾، والمعنى: فإن أصرّ بنو إسرائيل على عدم الدخول في الإسلام وفي أمّة الإسلام خير أمة أخرجت للنَّاس، وإن أصرَّ بنو إسرائيل على اتّباع أهوائهم وعلى عدم الحكم بما أنزل الله تعالى فاعلم أيُّها الرسول الكريم والنَّبـيّ العظيم أنَّ القوم الذين تولّوا عن دعوتك وصرفوا قلوبهم عن دين الإسلام قد زاد الله تعالى قلوبهم انصرافاً عن الحقّ وبصائرهم عمىً عن الهدى. وهذه المعاني عبَّرت الآية الكريمة عنها بإرادة الله تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم التي ارتكبوها. إنَّهم ارتكبوا الذّنوب وأصرّوا عليها وإنَّ الله سبحانه وتعالى يريد في المقابل أن يعذّبهم بتلك الذنوب التي أصرّوا عليها فزادهم ضلالةً وعمى بصيرة. ويلاحظ مجيء جملة: «يريد» في الجزئيّة الكريمة، ولهذه الجملة دورها الواضح في بعض آيات السّورة الكريمة، كما يلاحظ استعمال لفظة «بعض» التي جاءت في الجزئيّة الكريمة السّابقة. وتقرّر الآية الكريمة في القول: ﴿وإنَّ كثيراً من النَّاس لفاسقون﴾، أنَّ كثيراً من النَّاس لخارجون عن الصّراط المستقيم

وبخاصَّةٍ في مجال الأحكام، وسبق أن وُصِفَ الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى بأنَّهم كافرون وظالمون وفاسقون. وهكذا يتبيَّن الجديد من المعاني والمزيد من الفوائد التي تستفاد من القول: ﴿فإن تولّوا فاعلم أنَّما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم. وإنَّ كثيراً من النَّاس لفاسقون﴾ وهو القول الذي قلنا إنَّه مبنيٌّ على القول في الآية الكريمة السّابقة: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمّةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ إنَّ بني إسرائيل ومن لفّ لفَّهم تولّوا ثمّ ارتكبوا الذنوب وفسقوا عن أمر ربّهم جلّ وعلا وإنَّ ربّ العزَّة يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم في الأولى والآخرة.

ولمّا كان الحكم في الزّاني المحصن منطلق حديث الآيات الكريمات في الأحكام فقد بيَّنت الآية الكريمة الأخيرة في القسم حقيقة الحكم الذي يبتغيه الكافرون والظالمون والفاسقون وقرّرت أنه لا أحد أحسن حكماً من الله تعالى، فإلى:

الآية رقم (٥٠)

قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

في الشّقّ الأوّل من الآية الكريمة: ﴿أفحكم الجاهليّة يبغون﴾، يُنْكِر على الذين يصرّون على رفض أحكام الله تعالى والّذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى أن يؤثروا عليها ويفضّلوا أحكام الجاهليّة. ويفهم من هذا الشّقّ أن ثمّة نوعين من الحكم لا ثالث لهما، أحدهما الحكم بما أنزل الله

تعالى، وآخرهما الحكم بغير ما أنزل الله تعالى مهما كان نوعه وطبيعته. وهذا النّوع من الحكم تطلق عليه الآية الكريمة اسم الجاهليّة. والمعروف أنَّ من متعلّقات الأصل اللّغوي جهل السّفه بمعنى الطيش وخفّة العقل والجهل الذي يقابل العلم. إنَّ الّذي يؤثر حكم الجاهليّة على حكم الله تعالى هو في حقيقته أحد أفراد تلك الأمّة التي عُرِف عصرها بالجاهليّة بسبب ما اتّصف به أهلها من سفهٍ وحميّة وطيش وعصبيّة وأمّيّةٍ وجهل وما إلى ذلك من صفات الجاهليّة السّيّئة.

واللّطيف في الجزئيّة الكريمة أنَّ لفظة جاهليّة فيها ترشّح لمجيء جملة يبغون. إنَّ الجزئيّة تتجاوز الكثير من الجمل التي يصحّ أن تستعمل هنا، منها يريدون ويفضّلون ويؤثرون وما إلى ذلك. ومع أنَّ هذه الجمل تعبّر عن بعض ما في نفوس هؤلاء الجاهليّين فإنّها جميعها دون جملة يبغون في الدّلالة على كلّ هذه المعاني إضافةً إلى ما تنفرد به من دلالةٍ على صفةٍ من أسوأ صفات الجاهليّين وهي صفة البغي بغير الحقّ. إنَّ البغي بمعنى تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحرَّى، تجاوزه أو لم يتجاوزه[١]، وإنَّ هؤلاء الجاهليّين باغون حينما يريدون أن يحكموا بغير ما أنزل الله تعالى وهم أشدّ بغياً حينما يحكمون فعلاً بغير ما أنزل الله تعالى.

وفي مقابل الاستفهام الذي يُسْتَنْكر فيه على الذين يُعْرِضون عن حكم الله تعالى ويتعجَّب فيه من الذين يبغون حكم الجاهليّة، وذلك في الشقّ الأوّل: ﴿أفحكم الجاهليّة يبغون﴾، يكون الاستفهام الذي يفيد النّفي والسّؤال الذي يُفْهَم منه أنّه لا أحد أحسن من الله تعالى حكماً لقومٍ وصلو

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «بغى» (٥٥).

إلى أعلى مراحل العلم الأكيد وهي مرحلة اليقين، وذلك في الشق الآخر من الآية الكريمة: ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾، إنَّه لا أحد أحسن من الله تعالى حكماً لقومٍ يوقنون ووصلوا إلى علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين ثمرةً يانعةً لإيمانهم الراسخ بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً.

• • •

- ١٠ -

لا تتخذوا اليهود والنصارى والمستهزئين أولياء، وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين

الآيات (٥١ - ٦٦)

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ
فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ
نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ
نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ
أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ
يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ
ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ
ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن
قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ
مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾
وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ
كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ
ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ
ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ
كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ
أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوۡ أَنَّ

﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ممّا أشار إليه السياق من ذي قبل رغبة بني إسرائيل في حكم الجاهلية ورغبتهم عن حكم المصطفى ﷺ وعن حكم التوراة. وقد تحوّل السياق في هذا القسم التالي إلى نهي المسلمين عن اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء ونصراء لأن بعضهم أولياء بعض ولأنّ الكفر ملّةٌ واحدة، ووصف الّذين يتّخذون القوم أولياء بأنّهم قومٌ ظالمون وضعوا الأمور في غير مواضعها الصّحيحة: ويأتي على رأس هؤلاء الظالمين المنافقون الّذين يشقّون عصا المسلمين ويسارعون في المنافقين معتذرين بالقول: ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾، والدائرة بمعنى الداهية والمصيبة العظيمة. إنّ الله سبحانه وتعالى يعد، ووعده الحقّ، بأن يفتح على جنده أو أن يفضح المنافقين على رؤوس الأشهاد وذلك في القول: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده﴾، والمعروف أن عسى من الله تعالى إيجاب وقد أعزّ الله تعالى جنده وهزم الأعداء وحده وأخزى المنافقين وفضحهم، وقد ندموا بعد فوات الأوان. وحينما فضح الله تعالى المنافقين أصيب المسلمون بالذّهول لهول المفاجأة وسألوا في إنكار: أهؤلاء الّذين أقسموا بالله تعالى جهد الإيمان بأنّهم معنا ضدّ عدوّنا. لقد ثبت كذبهم وقد أحبط الله تعالى أعمالهم فأصبحوا خاسرين. ولمّا كان النفاق في أسوأ أحواله ردّةً إلى الكفر فقد حذّر الله تعالى بأن من يرتدّ ــ لا سمح الله ــ عن دينه فسوف يأتي الله سبحانه وتعالى بقوم يحبّهم جلّ وعلا ويحبونه رحماء بالمؤمنين بخفض الجناح لهم لدرجة اتّخاذهم هيئة الذليل، ولكنّهم العزيزون بالله تعالى،

أشدّاء على الكفار يجاهدون في سبيل الله تعالى بالنَّفس والنَّفيس ولا يخافون لومة لائم. إنَّ ذلك هو الفضل من الله تعالى الواسع العليم.

وإنَّ أولئك المجاهدين في سبيل الله تعالى وليّهم الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنون. ومن أهمّ صفات المؤمنين أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ أنَّهم يقيمون الصّلاة المفروضة والنَّوافل ويحرصون على أداء الصّلاة جماعة، ويؤتون الزّكاة المفروضة ويتصدّقون. إن أولئك هم حزب الله تعالى الغالب بإذن الله تعالى.

وكما نهى السياق المؤمنين عن اتّخاذ اليهود والنَّصارى أولياء نهاهم عن اتّخاذ اليهود والنصارى والكفار الّذين اتَّخذوا دينهم مهزوءاً به وضرباً من العبث أولياء، وأمرهم بتقوى الله تعالى في السّرّ والعلن. ومن مظاهر اتّخاذهم دين الإسلام هزواً ولعباً اتّخاذهم الأذان للصّلاة لهواً ولعباً بسبب عدم استعمالهم عقولهم استعمالاً صحيحاً.

ويأمر السياق المصطفى ﷺ أن يسأل أهل الكتاب في إنكار: هل تنكرون علينا إلاّ ما يوجب الرّضا عنّا من إيمان بالله تعالى وبكلّ الكتب السماويّة ولكنَّ أكثر القوم فاسقون. كما يأمر السياق المصطفى ﷺ أن يسأل أهل الكتاب: هل يريدون أن يخبرهم المصطفى ﷺ بالّذين هم شرٌّ عند الله تعالى جزاءً بالحقّ وبالصّدق؟ إنَّهم اليهود الّذين لعنهم الله تعالى وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير والّذين عبدوا الشيطان فأصبحوا شرّاً مكاناً وحالاً ومآلا.

وإنَّ ثمة الكثير من الأمور التي لا ينقضي عجب الإنسان منها في حقّ اليهود. إنَّ منهم منافقين يدّعون الإسلام بينما هم يجبنون المصطفى ﷺ

والمؤمنين بالكفر ويخرجون به والله تعالى أعلم بما يكتمون. وإنَّ كثيراً من اليهود ليسارعون في ارتكاب الآثام والعدوان وأكلهم السّحت من رباً ورشاً وغصبٍ وسرقة وما إليها. ما أسوأ العمل الّذي يقوم به هؤلاء اليهود. والعجيب في الأمر أنَّ الرّبّانيين وهم حكماء القوم وحلماؤهم، والأحبار وهم علماء القوم وفقهاؤهم، لا ينهون قومهم عن قول الإثم وأكل السّحت. ما أسوأ صنع القوم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا.

ولم تقف جراءة اليهود عليهم لعنة الله تعالى عند عباد الله تعالى إنّما تجاوزت إلى الذّات العليّة. إنَّ اليهود يزعمون أنَّ الله تعالى بخيل: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذباً﴾ جاء عنهم القول: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾، ويبادر السياق إلى الدّعاء عليهم بأن تُغَلّ أيديهم وبأن يطردوا من رحمة الله تعالى، ويَنْفِي ما قال اليهود ويثبت ما هو أهلٌ بالذّات العليّة من إنفاق. أمّا الباعث على طغيان القوم وكفرهم فهو حسدهم للمصطفى ﷺ. وهم وراء ذلك قد ألقى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء. ويلاحظ أنَّ ثمّة صفتين في اليهود وهما الطّغيان والكفر، وأنَّ ثمّة صفتين أوجدهما الله تعالى بينهم وهما العداوة والبغضاء الباقيتان بينهم إلى يوم القيامة. والله سبحانه وتعالى يطفىء نيران الحروب التي يوقدها اليهود ضدّ النّبي ﷺ والمؤمنين بعدد مرات الإيقاد. والله سبحانه وتعالى لا يحبّهم لأنّهم مفسدون في الأرض.

وفي الآيتين الكريمتين الأخيرتين من القسم دعوةٌ لأهل الكتاب إلى الخير. إنَّ عليهم أن يؤمنوا ويتّقوا ربّهم وسيكفّر الله سبحانه وتعالى سيّئاتهم ويدخلهم جنّات النعيم، وحثّ لهم على تطبيق تعاليم التوراة والإنجيل والقرآن والانضمام إلى أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ خير أمّةٍ أخرجت للناس.

إنَّهم حينما يفعلون ذلك يفتح الله تعالى عليهم خيرات السّماء والأرض. إنَّ قليلاً منهم فقط أمَّةٌ مقتصدة اعتنقت دين الإسلام ولكنَّ كثيراً منهم ساء ما يعملون.

● ● ●

الآية رقم (٥١)

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)﴾.

سبب النّـزول:

عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: لمّا حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبّث بأمرهم عبد الله بن أُبَيّ وقام دونهم. ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الّذي لهم من عبد الله بن أبيّ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وقال: يا رسول الله، أتبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولّى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفّار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت الآيات في المائدة: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنّصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض...﴾ الآية[١]، وفي روايةٍ أخرى عن عطيّة بن سعد قال: جاء عبادة بن الصّامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ لي موالي من يهود كثيرٌ عددُهُم، وإنّي أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولّى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبيّ: إنّي رجلٌ أخاف الدّوائر،

(١) تفسير الطبري (٦/١٧٨).

لا أبرأ من ولاية موالـيّ. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبيّ: يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه. قال: قد قبلت. فأنزل الله: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تتَّخذوا اليهود والنَّصارى أولياء. بعضهم أولياء بعض﴾. إلى قوله: ﴿فترى الّذين في قلوبهم مرض﴾(١).

يبدو من سبب النزول أن الآية الكريمة نزلت في مناسبةٍ معيّنةٍ متعلّقةٍ بيهود بني قينقاع في المدينة المنوّرة أوّل يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدرٍ وأحد(٢)، وقد حاصرهم المصطفى ﷺ خمس عشرة ليلةً ثمّ نزلوا على حكمه ﷺ ووهبهم إلى حليفهم في الجاهلية رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول(٣)، وفي المقابل خلع حلف بني قينقاع عبادة بن الصامت على نحو ما تبيَّن(٤)، ومع أنَّ الآية الكريمة ــ أو الآيتين الكريمتين ــ نزلت في مناسبةٍ خاصَّةٍ، فإنَّ العبرة كما هو معلومٌ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. إنَّ الآية الكريمة تنهي المؤمنين بصريح اللفظ أن يتّخذوا اليهود والنَّصارى أولياء من دون المؤمنين. والأولياء بمعنى النُّصراء جمع وليّ بمعنى نصير، من الولاية بكسر الواو بمعنى النُّصرة بضمّ النّون(٥)، ومن البيِّن أنَّ بني قينقاع نقضوا العهد الّذي بينهم

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ١٧٧)؛ وانظر أسباب النزول (٢٢٩)؛ وتفسير ابن كثير (٢/ ٦٨).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٢٧)؛ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

(٣) السيرة النبوية (٢/ ٤٢٦ ــ ٤٢٨).

(٤) السيرة النبوية (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «ولى» (٥٣٣).

وبين المسلمين وجاهروا المسلمين بالعداوة. إنَّ على المسلمين ألاّ يتَّخذوا من اليهود والنَّصارى أولياء ونصراء، وبخاصَّةٍ حينما يكون موقفهم شبيهاً بموقف بني قينقاع من النَّبيّ ﷺ والمؤمنين. ووراء ذلك لا ينهانا الله سبحانه وتعالى عن أن نبرّ الّذين لم يقاتلونا في الدّين ولم يخرجونا من ديارنا أو أن نُقْسِط إليهم ونعدل معهم. إنَّما ينهانا الله سبحانه وتعالى عن الّذين قاتلونا في الدّين وأخرجونا من ديارنا وظاهروا على إخراجنا أن نتَّخذهم أولياء ونصراء. قال تعالى[1]: ﴿لا ينهاكم الله عن الّذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم. إنَّ الله يحبّ المقسطين. إنَّما ينهاكم الله عن الّذين قاتلوكم في الدّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم. ومن يتولّهم فأولئك هم الظّالمون﴾.

إن الآية الكريمة تقرّر السبب الّذي من أجله نهي المؤمنون عن ذلك. إنَّ بعض أهل الكتاب من يهود ونصارى أولياء بعضٍ، لأنَّ الكفر ملَّةٌ واحدة، ونصراء بعضٍ ضدّ الإسلام والمسلمين. كما تقرّر الآية الكريمة أنَّ الّذي يتَّخذ من المؤمنين أولياء ونصراء من اليهود والنَّصارى فإنَّه منهم ومن جملتهم[2]، وحربٌ مثلهم على الله ورسوله. ولمّا كان وضع الولاية في غير موضعها ظلماً لهذه الولاية ومن ثمَّ كان واضعها في غير موضعها ظالماً لها فقد ختمت الآية الكريمة بالقول: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾، إنَّ من يصرّ على ظلمه وعلى عمى البصيرة يزيده الله تعالى عمى بصيرةٍ إلى عماه، والعياذ بالله.

---

(١) سورة الممتحنة: الآيتان ٨، ٩.

(٢) الجلالين.

والآية الكريمة التالية تشير إلى موقف شيخ المنافقين الموالي لبني قينقاع وإلى ضعف إيمانه وخِذْلان الله تعالى له، فإلى:

الآية رقم (٥٢)

قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾.

تبدأ الآية الكريمة بالفاء العاطفة التي تفيد ترتّب ما بعدها على ما قبلها دليلاً على عصيان الّذين في قلوبهم مرضُ النّفاقِ الأوامِرَ والنَّواهي. والمخاطب أساساً في القول: «فترى» محمّد بن عبد الله ﷺ، ويتّجه الخطاب بعد ذلك إلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّدية. إنّك أيُّها الرسول الكريم والنّبيّ العظيم ترى الّذين في قلوبهم مرضُ النّفاق، وفي نفوسهم نزغات الشيطان، وفي صدورهم وساوس الشكوك، يسارعون في أعماق كلٍّ من اليهود والنّصارى بالموالاة والتماس النُّصرة. إنّهم يقولون مبرّرين حماقاتهم ومخالفاتهم أوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ: ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾، ونخاف أن تدور علينا الدّوائر والمصائب لذا فنحن نسارع بالتّغلغل في أعماقهم كي يكون لنا يدٌ عندهم ودالّةٌ عليهم وطريقٌ إليهم حينما يلمّ بنا خطب وينالنا مكروه وتصيبنا مصيبة.

وانظر إلى روعة الفصل في القول: ﴿يسارعون فيهم يقولون﴾، إنّ هؤلاء المخالفين لأوامر الله تعالى يجمعون بين قبح الفعل وقبح القول في آنٍ واحد. إنّهم يأتون قبيحاً من الفعل ويقولون قبيحاً من العذر. وليس هذا القبح من القول المؤكّد للقبح من الفعل إلاّ دليلاً على ضعف إيمان القوم

لدرجة أنّهم لا يفترضون سوى أن تدور الدائرة عليهم، أي على المسلمين الّذين يندسّ فيهم المنافقون. وكأنّ المنافقين يتخيّلون بأذهانهم السّقيمة ونفوسهم العليلة أنّ المصائب قد أخذت طريقها الدائري وأنّها بسبيل العودة إليهم والاتّجاه نحوهم كي تصيبهم ولا تخطئهم. والمعروف أنّ الدائرة تقال في المكروه وأنّ الدولة تقال في المحبوب(١).

وعلى غرار ابتداء الآية الكريمة بالفاء العاطفة التي تدلّ على الترتيب مع التّعقيب يبدأ القول: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين﴾.

والمعروف أن عسى من الله تعالى إيجاب. والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يأتي بنصر المؤمنين وبالفتح المبين، وقد توّج كلّ ذلك بفتح مكّة المكرّمة، أو يأتي بأمرٍ من عنده بفضح المنافقين وهتك أسرارهم، والمعروف أنّ سورة التوبة تلقّب بالفاضحة لفضحها المنافقين. وهكذا يتأكّد ما قيل من أنّ عسى من الله تعالى إيجابٌ ويقين.

أما وقد جاء نصر الله تعالى والفتح وخابت ظنون المنافقين وأمانيهم فإنّ الآية الكريمة تبيّن الخزي العظيم الّذي حلّ بالمنافقين وذلك في القول الّذي يبدأ هو الآخر بالفاء العاطفة الدالّة على الترتيب مع التّعقيب وتوالي الأحداث. قال تعالى: ﴿فيصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين﴾، ويلاحظ مجيء جملة: «فيصبحوا» المرتبطة بالصباح وأول النّهار. ومع أن جملة أصبح وما شاكلها من جملٍ مثل أضحى وظلّ وأمسى لا ترتبط بالضّرورة بتلك الفترة الزّمنيّة التي تدلّ عليها الجملة أساساً ولذا يحدث بين

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ «دار» (١٧٤).

هـذه الجمـل تنـاوبٌ فـي الاستعمـال، فـإنَّ مجـيء جملـة: «فيصبحـوا» هنـا بـالـذّات يصحّ أن نفهـم منـه سـرعـة مجـيء الفتـح مـن الله تعـالـى وفضحـه المنافقين على رؤوس الأشهاد.

وحينما نعلم أنَّ المنافقين قد فعلوا ما لا يرضي الله تعالى عنه وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: ﴿فترى الّذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم﴾، وقالوا ما لا يرضي الله تعالى عنه وإلى ذلك أشار قوله تعالى: ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾، وحينما نعلم أنَّ الفعل أوضح وأقوى من القول فإنّـا نستطيع فـي ضـوء ذلـك أن نتبيَّن إضـافـةً معنـويّـةً جـديـدةً فـي القـول: ﴿فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾، والمعروف أنَّ إعلان القول أوضح وأقوى من إسراره في أنفسهم. وهكذا يتبيَّن أنّنا بصدد تطوّرٍ دقيقٍ وتحوّلٍ طريفٍ من الشَّيء الواضح إلى الشَّيء الّذي يقلّ عنه وضوحاً حتى ينتهي الأمر إلى ما توسوس به نفس الإنسان. وإنَّ تـدرّج المنـافقيـن مـن سيِّـىء الفعل إلى سيِّـىء القول إلى سيِّـىء ما أسرّوا في أنفسهم ووسوس به الشَّيطان الرَّجيم في صدورهم يحملنا على القول بأنَّ ما أسرّوا في أنفسهم هو أن تدور الدائرة على المصطفى ﷺ وعلى المؤمنين. إنَّ هذا الّذي أسرّه المنافقون في أنفسهم قد ندموا عليه، وهو ندمٌ موصولٌ بندمهم على نصر المؤمنين الّذي جاءهم من الله تعالى وندمهم على الفتح. إنَّ المؤمنين حينما انتصروا انهزم أمامهم أعداء الله تعالى. وإنَّ هزيمة أعداء الله تعالى أمام المؤمنين السبب في ندم المنافقين أوّلاً.

قال محمّد بن إسحاق: فكانت أوّل قبيلةٍ من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع. فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتّى نزلوا على حكمه. فقام إليه عبد الله بن أبيّ

ابن سلول حين أمكنه الله منهم فقال: يا محمّد، أحسن في مواليّ. وكانوا حلفاء الخزرج. قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمّد، أحسن في مواليّ. قال: فأعرض عنه. قال: فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني. وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلاً ثم قال: ويحك أرسلني. قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداةٍ واحدة، إني امرؤٌ أخشى الدوائر. قال: فقال رسول الله ﷺ: هم لك[1].

ومن البيِّن أنَّ الآية الكريمة نزلت في هذه المناسبة.

والآية الكريمة التالية تبيِّن تعجّب المؤمنين من كذب المنافقين وتذرّعهم بالأيمان التي تغمسهم في الذّنوب وتقرّر ذهاب أعمال المنافقين الصالحة سدى، فإلى:

الآية رقم (٥٣)

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى أنَّ المنافقين سيندمون حينما لا يفيدهم النَّدم إذ ينصر الله تعالى جنده أو يفضح المنافقين على رؤوس الأشهاد. ويصحّ أن يتحقّق الأمران معاً. وإنّ هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها تقرّر أن الّذين آمنوا يسألون في إنكار: أهؤلاء هم المنافقون وقد فضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد الّذين كانوا يزعمون ويقسمون بالله

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).

تعالى العظيم جهد أيمانهم إنَّهم لمعنا نحن المسلمين ظاهراً وباطناً، قلباً وقالباً، في حال اليسر وفي حال العُسْر! لقد صدق الله سبحانه وتعالى وعده فيهم بأن يأتي جلّ وعلا بأمرٍ من عنده فيهم بفضحهم وكشف عوراتهم. ولما كانت الآية الكريمة السابقة قد رتَّبت ندم المنافقين، بسبب ما أسرّوا في أنفسهم، على هتك أسرارهم وكشف سوءاتهم فذلك معناه أنَّ إنكار المؤمنين على المنافقين أعمالهم وأقوالهم وأَيْمانهم مترتّبٌ على فضح الله تعالى المنافقين على رؤوس الأشهاد: إنَّ ذلك معناه ندم المنافقين على ما أسرّوا في أنفسهم، ولهذا سكتت الآية الكريمة التالية عن الحديث في ندم المنافقين لأنَّه مفهومٌ ضمناً، وفي مقابل السكوت أضافت الجديد المفيد من المعنى حينما قرَّرت أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أحبط أعمال أولئك المنافقين الصالحة ظاهراً لأنَّها أعمالٌ لم يرد المنافقون وجه الله تعالى الكريم بها، إنَّما أرادوا تضليل المؤمنين وإيهامهم بأنَّهم مؤمنون بقصد أن يأمنوا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم.

وكما ترتَّب على فضح المنافقين في الآية الكريمة السابقة أن أصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين، ترتّب على إبطال أعمالهم في الآية الكريمة اللاَّحقة أن أصبحوا خاسرين. إنَّ ما قيل عن جملة أصبح في الآية الكريمة السابقة يقال هنا. وبما أنَّ أعمالهم الصالحة قد جعلها الله تعالى هباءً منثوراً فلم يبق لهم سوى أعمالهم الطالحة، فذلك معناه أنَّ تجارتهم أكيدة البوار والخسران، والعياذ بالله.

إنَّ الكافرين والمنافقين قد أحبط الله تعالى أعمالهم لأنَّ الفريقين يشتركان في صفة الكفر ـ والعياذ بالله ـ ويتركّز الاختلاف بين الفريقين أنَّ الكافرين يعلنون كفرهم بينما يعلن المنافقون إيمانهم ويخفون كفرهم، ومن

هنا كان المنافقون أشدّ خطراً على المؤمنين من الكافرين ومن هنا كان المنافقون في الدّرك الأسفل من النّار. قال تعالى[1]: ﴿إنَّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيراً﴾، والمعروف أن المنافقين دركات، وأنَّ النفاق أنواع، ويظلّ بعض المنافقين يبتعدون عن الإيمان الّذي ذاقوا وقتاً من الأوقات حلاوته حتى ينتهوا إلى درك الكفر الصريح وحتى يرتدّوا ــ والعياذ بالله ــ عن دين الإسلام. لقد تبيّنّا أنَّ عبد الله بن أبيّ ابن سلول شيخ المنافقين آثر يهود بني قينقاع على نبيّ الإسلام وأمّة الإسلام. إنَّ هذه الملابسات التي إليها أومأنا تمثّل السبب الّذي تحوّل من أجله الحديث من تبيين حال المنافقين إلى تبيين حال المرتدّين ــ لا سمح الله ــ عن دين الإسلام. ولمّا كان القرآن الكريم يضيف دائماً وأبداً الجديد والمفيد من المعاني فقد كان ثمّة تحذيرٌ للمؤمنين من التورّط في الذنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك مع الله تعالى سواه كما كان ثمّة تهديدٌ ووعيدٌ وإرشاد وذلك في الآيات الكريمات الثّلاث التاليات، فإلى:

الآيات رقم (٥٤ ــ ٥٦)

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٤٥.
(٢) تأذن: أعلم.

إنَّ الله سبحانه وتعالى هو الغنيّ ونحن الفقراء. وإنَّ على الذين أكرمهم الله تعالى بنعمة الاهتداء إلى دين الحق الذي بعث الله تعالى به محمد بن عبد الله ﷺ أن يشكروا لله تعالى هذه النّعمة العظيمة وأن يقوموا بما يجب عليهم من شكر لله تعالى بالعضّ بالنَّواجذ على هذه النّعمة لا أن يبادلوا النّعم والآلاء بالجحود والكفران. وقد قال تعالى[1]: ﴿وإذ تأذّن[2] ربّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد﴾.

إنَّ الآية الكريمة الأولى تنادي الذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم دستوراً وتحذّرهم من كفران النعم، وتهدّدهم بأنَّ من يرتدّ منهم ـ لا سمح الله ـ عن دين الإسلام الذي أكمله الله تعالى ورضيه لهم وأتمّ به النّعمة عليهم، فإنَّ هؤلاء المرتدّين الذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً، لهوانهم على الله تعالى، سوف يُذْهِبُهُمُ الله تعالى المهيمن العزيز الجبّار المنتقم حتى يغدوا كأمس الدّابر. إنَّ السماء والأرض لن تبكيا عليهم، وسوف يأتي الله تعالى العزيز الحكيم القادر على كلّ شيء بقومٍ سواهم لن يكونوا أمثالهم. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم﴾.

ويلفت نظرنا مجيء جملة: «يأتي» في القول: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه﴾، والمعروف أنَّ هذه الجملة إنّما تستعمل حينما يرادَ التّنبيه إلى البعد الزّماني أو المكانيّ أو المعنويّ، وذلك بعكس جملة:

[1] سورة إبراهيم: الآية ٧.

[2] تأذّن: أعلم.

«يجيء» إنَّ جملة: «يأتي» هنا تشير إلى قدرة الفعّال لما يريد جلّ وعلا القادر على كلّ شيء، وبذلك هي تطرد ما قد يكون قد تسلّل إلى بعض النّفوس من استبعاد حدوث التّبديل أو استحالته. إنَّ الله سبحانه وتعالى الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء قادرٌ على أن يأخذ الذين بدّلوا نعمة الله كفراً أخذ عزيزٍ مقتدر، ويذهب بهم حيث شاء، وأن يأتي بقومٍ آخرين بدلاً منهم، يحبّهم بإيتائهم من كلّ ما يسألون ويحبّونه بسبب فعل الأوامر واجتناب النَّواهي. وإنَّ من أهمّ الأوامر التي يمتثل لها أولئك المحبّون أنَّهم يخفضون جناحهم لإخوانهم المؤمنين خفضاً بيّناً دليلاً على فرط حبّهم لهم وحدبهم عليهم ورأفتهم بهم للدّرجة التي يأخذ فيها شكلهم وهم يَخْفِضون لإخوانهم الجناح ويُلينون الجانب شكل الذليل، وليس ذلك من الذلّ في شيءٍ، ولكنّه العزّ حقّ العزّ، لأنّ تعبير شكلهم وكأنّه ذلّ، عن صادق حبّهم لإخوانهم المؤمنين، وهو عين العزّ، من الأمور التي يرضى الله تعالى عنها ويحبّها. وإنَّ من أقوى الأدلّة في الآية الكريمة على أنَّ هذا الشّكل من ذلّ المؤمن لأخيه المؤمن، دليلاً على فرط برّه به، هو عين العزّ أنَّ هذا المؤمن نفسه الهين اللَّين لأخيه المؤمن يكون بعكس ذلك تماماً في حقّ الكافرين. لقد جمعت الآية الكريمة في حديثها عن صفة هؤلاء المؤمنين مع إخوانهم المؤمنين وأعدائهم الكافرين بين الصّفتين المتقابلتين. قال تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين﴾، إنَّ هذه المعاني تأخذ بسببٍ من قوله تعالى في صفات الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين في سورة الفتح[1]: ﴿محمدٌ رسول الله. والذين معه أشدّاء

(١) الآية ٢٩.

على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السّجود﴾.

وإنَّ هيئة المؤمن هذه، دليلاً على عطفه وشفقته على أخيه المؤمن حتى إنَّ الجاهل يفهم حقيقة عزّها على أنّه ذلّ لاكتفائه بالشّكل، لتذكّرنا بحقيقة عزّ الأبناء البررة حينما يترجمون فرط برّهم لآبائهم ورأفتهم ورحمتهم بهم خفض جناحٍ لآبائهم ولين جانب حتى تأخذ هيئتهم لفرط الرحمة هيئة الذليل، وذلك على غرار أخذ هيئة المؤمن الرَّحيم بإخوانه الهيئة ذاتها. إنَّ الابن البارّ هو العزيز حقّاً لأنَّ مقياس عزّته هيئة الذلّ التي يكون عليها حاله مع أبويه. وإنَّ المؤمن الشّفيق بإخوانه المؤمنين هو العزيز حقّاً لأنَّ مقياس عزّته هيئة الذّلّ التي يكون عليها حاله مع إخوانه المؤمنين. إنَّ الذي جعل الذّلّ عزّاً هو الرَّحمة في قول الحقّ جلّ وعلا في الأمر ببرّ الوالدين في سورة الإسراء(١): ﴿واخفض لهما جناح الذّلّ من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا﴾، وإنَّ الذي جعل الذلّ عزّاً هو العزّة على الكافرين في القول: ﴿أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين﴾.

ويلاحظ تقديم ما يخصّ المؤمنين: ﴿أذلّة على المؤمنين﴾ على ما يخصّ الكافرين: ﴿أعزّةٍ على الكافرين﴾، وذلك دليلٌ على تقدّم المؤمنين دائماً. ويلاحظ أنَّ الحديث هنا يكون عن المؤمنين جميعاً، فالمؤمنون جميعاً عزيزون بدين الإسلام الذي رضيه الله تعالى لهم. وقد قال عزّ من قائل(٢): ﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾.

---

(١) الآية ٢٤.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

أما وقد تجلّت محبّة المؤمنين لإخوانهم المؤمنين في رفيع صورها وهي هيئة الذلّ على النّحو الذي تبيّن، فكيف تتجلّى عزّة المؤمنين على الكافرين؟ تتجلّى في قول الحقّ جلّ وعلا في صفات هؤلاء المؤمنين: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾. ومن البيِّن أنّه حينما يكون ثمة إيمانٌ وكفرٌ فإنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى ينصرف ابتداءً إلى القتال في سبيل الله تعالى، ووراء ذلك يدخل تحت الجهاد في سبيل الله تعالى كلّ أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى لأنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى كما يكون بالسّيف والسّنان، يكون بالقلم واللسان، وبالجوارح والأركان، وبالقلب أو الجَنان[1]. جاء في الجهاد بالنّفس والنّفيس قول الحقّ جلّ وعلا[2]: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنّة. يقاتِلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله. فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم﴾. وجاء في الحثّ على مطلق الجهاد في سبيله تعالى قوله عزّ من قائل[3]: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا. وإنَّ الله لمع المحسنين﴾، وقال تعالى[4]: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون. وجاهدوا في الله حقّ جهاده. هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدّين من حرج. ملّة أبيكم إبراهيم. هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكونَ الرّسولُ شهيداً عليكم وتكونوا

(١) الجنان بفتح الجيم: القلب.
(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٤) سورة الحج: الآيتان ٧٨، ٧٩.

شهداء على النّاس. فأقيموا الصّلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النّصير﴾.

وإنَّ هؤلاء المجاهدين في سبيل الله تعالى لا يخافون لومة لائم، حينما يجاهدون في سبيل الله تعالى بكلّ صور الجهاد، من قتالٍ للكافرين، ومن تطبيقٍ لأحكام الله تعالى، ومن امتثال مطلقٍ لأوامر الله تعالى ونواهيه. إنَّ لهؤلاء المجاهدين في سبيل الله تعالى هدفاً سامياً هو إرضاء الله تعالى بطاعته جلّ وعلا طاعةً مطلقةً وبطاعة حبيبه المصطفى ﷺ طاعةً مطلقةً. وتكون تلك الطّاعة بالاستمساك بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ، وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم. والله غفورٌ رحيم﴾.

وتصف الآية الكريمة الجهاد في سبيل الله تعالى والامتثال لأوامر الله تعالى وأوامر حبيبه المصطفى ﷺ وعدم الإصغاء في قليلٍ أو كثيرٍ للوم أيّ ناعق بأنَّ كلّ ذلك فضل الله تعالى يؤتيه جلّ وعلا من يشاء من عباده: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾، والمعروف أنَّ الإيتاء بمعنى الإعطاء، ووراء ذلك فالإيتاء إنَّما هو محض فضلٍ من المؤتِي والمعطِي. إنَّ المجاهدين في سبيل الله تعالى قد هداهم جلّ وعلا سبله. وقد انتهت بالمجاهدين السّبل إلى محض الفضل من الله تعالى وهو حبّه جلّ وعلا لهم. لقد عبّرت الآية الكريمة عن حبّ الله تعالى الذين يحبّونه بأنّه محض فضلٍ من الله تعالى، ووصفت ذلك الفضل ــ ضمناً ــ بأنّه واسع وذلك في الجزئيّة الكريمة الأخيرة: ﴿والله واسعٌ عليم﴾، إنَّ الله سبحانه وتعالى واسعٌ

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

فضله، وإنَّ الله سبحانه عليم، هكذا في صيغة المبالغة. إن الله سبحانه وتعالى قد أحاط بكلّ شيءٍ علماً، وقد أحاط الله تعالى علماً بحقيقة هؤلاء المجاهدين في سبيله جلّ وعلا، بدليل أنَّهم لا يخافون في الله تعالى لومة لائم، فأسبغ الله تعالى عليهم واسع فضله، وقد تجلّى ذلك في حبّه جلّ وعلا لهم. إنَّ الفضل واسع، وإنَّ الحبّ واسع لأنَّهما من الله تعالى الواسع العليم.

وإنَّ الآية الكريمة التالية لترشد المؤمنين إلى طريق العزَّة الوحيد وتبيّن لهم صفات الذين هم أهلٌ لأنّ يعزّهم الله تعالى. إنَّها معاملةٌ وسلوك وفق منهج الله تعالى. قال عزّ من قائل: ﴿إنَّما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصَّلاة ويؤتون الزَّكاة وهم راكعون﴾.

من البيِّن أنَّ «إنَّما» تفيد الحصر. والآية الكريمة بذلك تحصر الولاية وطلب النُّصرة في الله تعالى وفي رسوله ﷺ وفي المؤمنين. إنَّ الآية الكريمة تأمر المؤمنين بألاَّ يبحثوا عن الولاية والنّصرة إلاَّ عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ وعند المؤمنين. أمّا طلب النّصرة من الله تعالى ومن رسوله ﷺ فإنَّه يتمّ عن طريق تطبيق تعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ الذي بيَّنت سنّته المطهّرة معاني القرآن الكريم وفصّلت مجمله. وإنَّ كلاًّ من القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة المطهَّرة ليأمر المؤمنين باتّخاذ المؤمنين أولياء من دون الكافرين.

ولمّا كان المؤمنون إخوةً وقد قال تعالى[1]: ﴿إنَّما المؤمنون إخوة﴾، وكان المؤمنون خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس وقد قال تعالى[2]: ﴿كنتم خير أمّةٍ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، فقد بيّنت الآية الكريمة أهمّ صفات المؤمنين: ﴿إنّما وليُّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون﴾، إنّ إقامة الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعد الشهادتين لأنّها عماد الدين ولأنّها عبادةٌ يتّجه بها العبد إلى بارئه جلّ وعلا بطريقٍ مباشر. وإنّ إيتاء الزكاة يلي إقامة الصّلاة في الأهمّيّة ولهذا اقترنت الزّكاة بالصّلاة في القرآن الكريم فيما يزيد على الثّمانين موضعاً. وإنّ إيتاء الزّكاة أهمّ الأعمال في مجال المال. والزّكاة عبادةٌ يتّجه بها العبد إلى بارئه جلّ وعلا بطريقٍ غير مباشر.

إنّ الصّلاة وهي أهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين، ذات صورٍ مختلفة، وإنّ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد درجات. عن أبي هريرة عن النّبيّ ﷺ قال: صلاة الجماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة. فإنّ أحدكم إذا توضّأ فأحسن وأتى المسجد لا يريد إلاّ الصّلاة لم يَخْطُ خَطوةً إلاّ رفعه الله بها درجةً وحَطَّ عنه خطيئةً حتّى يدخل المسجد. وإذا دخل المسجد كان في صلاةٍ ما كانت تَحْبسه وتصلّي، يعني عليه، الملائكة، ما دام في مجلسه الذي يصلّي فيه، اللّهمّ اغفر له اللّهمّ ارحمه ما لم يُحْدِث فيه[1]، وإنّ الصّلاة لما كانت ذات صور مختلفة وكانت صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد درجات كان في الآية الكريمة عودةٌ إلى الصّلاة بذكر صفةٍ من أهمّ صفاتها وهي صفة الرّكوع التي تقع وسطاً بين القيام وبين القعود والسجود: ﴿الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾، إنّ هؤلاء المؤمنين جميعاً يقيمون الصّلاة المكتوبة ويؤتون الزّكاة المفروضة لفئاتها الثّمان المذكورة في الآية الكريمة السّتّين

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٢٩).

من سورة التَّوبة. ووراء ذلك هم يقيمون الصَّلاة بأركانها وواجباتها وسننها، ويقيمون الصَّلاة جماعة. وممّا يدلّ على أنَّ الركوع يصحّ أن يدل على أداء الصَّلاة في جماعة قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً للبتول في سورة آل عمران[1] : ﴿يا مريم اقنُتي لربّك واسجدي واركعي مع الرَّاكعين﴾.

وإنَّ الآية الكريمة التّالية لتصف الذين هذه هي صفاتهم بأنَّهم حزب الله تعالى. قال عزّ من قائل: ﴿ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون﴾.

إنَّ الآية الكريمة تقرّر أنَّ الذي يجعل الله تعالى وليَّه ويثق به ويستعين به جلّ وعلا ويتوكّلُ عليه وحده لا شريك له، وإنَّ الذي يجعل رسوله ﷺ وليّه وناصره وذلك بطاعة الرسول ﷺ، وإنَّ من يجعل الذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً أولياءه ونصراءه امتثالاً لأمر الله تعالى وأمر حبيبه ﷺ، فإنَّ أولئك هم حزب الله تعالى بمعنى جند الله تعالى[2]، وإنَّ أولئك هم الغالبون بإذن الله تعالى.

ويلاحظ أنَّ الآية الكريمة تتجاوز وصف هؤلاء بأنَّهم حزب الله تعالى إلى الجمع معاً بين وصفهم بأنَّهم حزب الله تعالى وبأنَّهم هم الغالبون. إنَّ الآية الكريمة لا يجيء فيها هذا القول البسيط: ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فأولئك هم حزب الله وهم الغالبون، إنَّما يجيء فيها الوصف المباشر لهؤلاء المؤمنين في أسلوب التَّوكيد بأنَّهم حزب الله وما داموا حزب الله تعالى فهم الغالبون دائماً وأبداً بإذن الله تعالى وحسن توفيقه. إنَّ

(١) الآية ٤٣.

(٢) تفسير القرطبي (٢٢١٩).

هذه هي القاعدة العامّة التي لا تختلف، وإنَّ هذه هي النهاية الأكيدة التي لا تتخلّف. وممّا جاء في تبيين صفات حزب الله تعالى قوله عزّ من قائل في سورة المجادلة[1]: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. أولئك كَتَبَ في قلوبهم الإيمانَ وأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون﴾.

وكما نهي السياق من ذي قبل الذين آمنوا عن اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء نهاهم بعد ذلك عن اتّخاذ الذين اتّخذوا دينهم هزواً ولعباً من أهل الكتاب ومن الكفّار أولياء، فإلى:

الآية رقم (٥٧)

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

تنهي الآية الكريمة المؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّدٍ رسولاً وبالقرآن دستوراً أن يتّخذوا الذين اتخذوا دينهم دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به محمد بن عبد الله ﷺ مهزوءاً به ونوعاً من اللّعب وضرباً من العبث من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، وهم اليهود أتباع موسى عليه السّلام، والنّصارى أتباع عيسى عليه السّلام، ومِنَ الكفّار الذين لم يصطفهم الله تعالى بكتابٍ سماويّ كمشركي مكّة أولياء ونصحاء ونصراء. إنَّ الكفر ملّةٌ واحدة، وإنَّ الكافرين جميعاً حربٌ على الإسلام

---

(١) الآية ٢٢.

والمسلمين. وإنَّ من وسائل هؤلاء الأعداء من يهود ونصارى ومشركين سلاح الاستهزاء والسّخرية، وهو سلاحٌ خطيرٌ محطّمٌ للمعنويّات. وبعد نهي الآية الكريمة الذين آمنوا عن اتّخاذ أهل الكتاب المستهزئين والكفّار أولياء تأمرهم بتقوى الله تعالى في السّرّ والعلن إن كانوا مؤمنين حقّاً وصدقاً. وإنَّ من مقوّمات التّقوى صدق السّرّ والعلانية، فعلى المؤمنين أن يكون موقفهم واحداً في الظّاهر والباطن من المستهزئين.

وبشأن القول: «والكفّار» وردت فيه قراءتان. بالنصب، والمعنى: لا تتّخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ولا تتّخذوا الكفّار أولياء. وبالخفض، والمعنى: لا تتّخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفّار أولياء.

والآية الكريمة التالية تعيّن مظهراً من مظاهر استهزاء القوم وسخريتهم وهو المتعلّق بالأذان إلى الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين وعماد الدين، فإلى:

الآية رقم (٥٨)

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾.

نهت الآية الكريمة السابقة الذين آمنوا أن يتّخذوا الذين اتّخذوا دينهم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب والكفّار أولياء، وهذه الآية الكريمة التالية تنهي الذين آمنوا أن يتّخذوا الذين يتّخذون النداء إلى الصّلاة هزواً ولعباً. والمعنى: ولا تتخذوا أولياء الذين إذا ناديتم إلى الصّلاة اتخذوها هزواً ولعباً، مهزوءاً بها وسخرية. إنَّ ذلك الاستهزاء منهم بالأذان

والسّخرية بمحاكاة المؤذّن ولكن بطريقةٍ مؤذيةٍ لكلّ نفسٍ مؤمنة بسبب أنّهم قومٌ لا يعقلون معنى ما أتوا، ولا يفقهون فحوى ما اقترفوا من آثام، ولا يدركون مدى الخسارة التي حلّت بهم حينما لم يمتثلوا لأذان الدّاعي إلى الصّلاة وحينما أخذوا يهزءون به ويسخرون منه. إنّ من لديه أدنى مُسْكةٍ من عقل لا يأتي شيئاً ممّا أتى هؤلاء المستهزئون وذلك دليلٌ على أنهم عطّلوا عقولهم وكأنّهم الأنعام التي ليس لها عقولٌ أصلاً بل هم أضلّ من الأنعام التي تحرص بغريزتها على ما ينفعها وتبتعد عمّا يؤذيها ويضرّها على حين يصرّ المستهزئون على ما يضرّهم ولا ينفعهم.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن محيريز وكان يتيماً في حجر أبي محذورة أنّه قال: قلت لأبي محذورة: يا عمّ إنّي خارجٌ إلى الشّام وأخشى أن أُسْأَل عن تأذينك قال له نعم: خرجت في نفر وكنّا في بعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق فأذّن مؤذّن رسول الله ﷺ بالصّلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذّن ونحن متنكّبون فصرخنا نحكيه ونستهزىء به. فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: أيّكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشار القوم كلّهم إليّ وصدقوا. فأرسل كلّهم وحبسني وقال: قم فأذّن. فقمت ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ ولا ممّا يأمرني به. فقمت بين يدي رسول الله ﷺ. فألقى عليّ رسول الله ﷺ التّأذين هو بنفسه قال: قل الله أكبر الله أكبر. أشهد ألاّ إله إلاّ الله أشهد ألاّ إله إلاّ الله. أشهد أنّ محمداً رسول الله أشهد أنّ محمداً رسول الله. حيّ على الصّلاة حيّ على الصّلاة. حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلاّ الله. ثمّ دعاني حين قضيت التّأذين فأعطاني صرّةً فيها شيءٌ من فضّة.

ثم وضع يده على ناصية أبـي محذورة ثمّ أمرّها على وجهه ثمّ بين ثدييه ثمّ على كبـده حتّـى بلغـت يـد رسـول الله ﷺ سـرّة أبـي محـذورة، ثـمّ قـال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك وبارك عليك. فقلت: يا رسول الله ﷺ مرني بالتّأذين بمكّة فقال: قد أمرتك به. وذهب كلّ شيءٍ كان لرسول الله ﷺ من كراهة. وعاد ذلك كلّه محبّةً لرسول الله ﷺ. فقدمت على عتّاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذّنت معه بالصّلاة عن أمر رسول الله ﷺ. وأخبرني ذلـك مـن أدركـت مـن أهلي ممّـن أدرك أبـا محـذورة على نحو مـا أخبـرنـي عبـد الله بـن محيـريـز، والحـديـث هنـا لعبـد العـزيـز بـن عبـد الملـك بـن أبـي محذورة راوي القصّة عن عبد الله بن محيريز. هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم في صحيحه وأهل السّنن الأربعة من طريقٍ عن عبد الله بن محيريز عن أبـي محذورة واسمه سَمُرة بن مِغْير بن لوذان. أحد مؤذّني رسول الله ﷺ الأربعة، وهو مؤذّن أهل مكّة، وامتدّت أيّامه رضي الله عنه وأرضاه[1].

وإذا كـان لأبـي محذورة قصّةٌ مع الأذان، فإنَّ لعتّاب بن أَسيد أحد مؤذّني رسول الله ﷺ قصّةً هو الآخر. ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة أنَّ رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذّن وأبـو سفيـان بـن حـرب وعتّـاب بـن أَسِيـد والحـارث بـن هشـام جلوسٌ بفنـاء الكعبـة. فقـال عتّـاب بـن أَسيـد: لقـد أكـرم الله أسيـداً ألاّ يكـون سمـع هـذا فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنّه محقٌ لاتّبعته. فقـال أبـو سفيـان: لا أقـول شيئاً، لـو تكلّمـت لأخبـرت عنّـي هـذه الحصى. فخرج عليهـم النّبـيّ ﷺ فقـال: قـد علمـت الـذي قلتـم. ثـمّ ذكـر

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢، ٧٣).

ذلك لهم. فقال الحارث وعتّاب: نشهد أنّك رسول الله. ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك[1].

وإذا كان أهل الكتاب قد وصفوا بأنّهم قومٌ لا يعقلون فإنّهم في الآية الكريمة التّالية، وصفوا بأنَّ أكثرهم فاسقون، فإلى:

الآية رقم (٥٩)

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ، وإنَّ كل فردٍ من أفراد أمّته عليه الصَّلاة والسَّلام تبعٌ له في ذلك الأمر، بأن يقول لأهل الكتاب متسائلاً في إنكار: هل تَنْقِمون منّا يا أهل الكتاب وهل تنكرون علينا ما يستحقّ شيئاً من النّقمة والإنكار! إنّكم ـ للعجب ـ تنقمون منّا ما يقتضي الرّضا عنّا، وتنكرون علينا ما يلزم معه الثّناء علينا. هل الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد الفرد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد يقتضي الموافقة والمرافقة أو المخالفة والمفارقة؟ إنّه يقتضي الموافقة والمرافقة ولكنكم تنقمون منّا لأنَّ توحيدنا يظهركم على حقيقتكم مشركين مع الله تعالى غيره مرتكبين الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى.

وهل الإيمان بالقرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين والذي أُنْزِل إلينا يقتضي الموافقة والمرافقة أو المخالفة والمفارقة؟ إنه يقتضي الموافقة والمرافقة ولكنكم تنقمون منّا لأنَّ إيماننا بالقرآن الكريم المصدّق للكتب السماويّة السابقة المهيمن عليها الشهيد بصحّتها وبأنّها موحىً بها من

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢).

عند الله تعالى يظهركم على حقيقتكم مؤمنين ببعض كتابكم السماويّ وكافرين ببعض لأنَّ فيه البشارة بمحمد بن عبد الله ﷺ وفيه نعته عليه الصَّلاة والسَّلام ووجوب اتّباعكم له إذا بُعِث عليه الصَّلاة والسَّلام.

وهل الإيمان بالكتب السّماويّة السّابقة على القرآن الكريم ومنها التَّوراة والإنجيل يقتضي الموافقة والمفارقة أو المخالفة والمرافقة؟ إنَّه يقتضي الموافقة والمرافقة ولكنّكم تنقمون منّا لأنَّ إيماننا بكتابكم يظهركم على حقيقتكم مؤمنين ببعض كتابكم السَّماوي وكافرين ببعض لأنَّ كتابكم يبشّر بمحمد بن عبد الله ﷺ ويلزمكم باتّباعه ﷺ وبالإيمان بالقرآن الكريم.

وهل اتّباعنا لشريعة الله تعالى وسَيْرُنا وَفْقَ منهاجه جلّ وعلا كما بيّنهما عزّ وجلّ للمصطفى ﷺ في القرآن الكريم والسّنَّة النبويَّة المطهّرة الموحى بهما من ربّ العالمين، وقد قال تعالى(1): ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً﴾، ممّا نجم عنه ظهور الصّراط المستقيم الّذي نسير فيه بفضلٍ من الله تعالى ونعمة وظهور أكثركم على حقيقتكم فاسقين خارجين على الصّراط المستقيم، هل كل ذلك يقتضي الموافقة والمرافقة أو المخالفة والمفارقة؟ إنه يقتضي الموافقة والمرافقة بأن تهجروا الفسق وتتحوّلوا إلى الصّراط المستقيم : ﴿صراط الله الّذي له ما في السّماوات وما في الأرض﴾(2)، ولكنكم تركبون رؤوسكم وتصرّون على باطلكم وعلى مخالفة الحقّ ومفارقته!

وإذا كان أهل الكتاب بعامّة، اليهود بخاصّة، قد نقموا من المؤمنين دون وجه حقٍّ ودون أن يأتي المؤمنون بأدنى سبب يوجب تلك النّقمة

(1) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(2) سورة الشّورى: الآية ٥٣.

وذلك الإنكار، فإنَّ ربّ العزَّة يرشد المؤمنين بأمرهم في شخص المصطفى ﷺ أن يسألوا اليهود على جهة الخصوص في أسلوب الإنكار عليهم والتّنبيه لهم على ما أتوا فعلاً من منكراتٍ، أهمّها الإشراك مع الله تعالى .سواه، فاستحقّوا لعنة الله وغضبه عليهم ومسخهم قردةً وخنازير[1]، لقد كان كل ذلك في الآية الكريمة التّالية، فإلى:

الآية رقم (٦٠)

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

جاء في سبب نزول الآية الكريمة السّابقة، وقيل في سبب نزول هذه الآية الكريمة التّالية[2]، قال ابن عبّاس: أتى نفرٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فسألوه عمّن يؤمن به من الرّسل، فقال: أؤمن: ﴿بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل﴾، إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾[3]، فلمّا ذكر عيسى جحدوا نبوّته وقالوا: والله ما نعلم أهل دينٍ أقلّ حظّاً في الدّنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شرّاً من دينكم، فأنزل الله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا إلاّ أن آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾، إلى قوله: ﴿فاسقون﴾[4]، إنَّ وجود لفظة شرّ في سبب النزول وفي الآية الكريمة التي نحن بصددها يجعل رأي من ذهب إلى أنَّ الحادثة سبب في نزول الآية الكريمة التي نحن بصددها وجيهاً.

(١) انظر في سبب النّزول أسباب النّزول (٢٣٢)؛ وتفسير الطبري (٦/ ١٨٩).
(٢) أسباب النّزول (٢٣٢) هامش (٤).
(٣) الاقتباس من سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٤) أسباب النزول (٢٣٢).